موقف المدرسة الحداثية من تدوين السنة النبوية

بقلم
أ.د/ يوسف عبد اللاوي
جامعة الشهيد حمه لخضر ـ الوادي
youcabd@yahoo.fr



المقدمة:

الخطاب الحداثي خطاب ينتمي إلى التيار العلماني من حيث الأسس الفلسفية ، ومن حيث نظرته إلى التراث الإسلامي الذي يشكل بالنسبة للموقف العلماني عائقا أمام النهضة .

لكن خطاب الحداثة يختلف عن الخطابات الأخرى المنتمية للتيار العلماني الذي ساد الفكر العربي في الفترة الماضية بتياراته كافة الليبرالي والاشتراكي والقومي .

فإنه إذا كان الخطاب العلماني النهضوي قد مارس النقد على التراث من خارج التراث ، فإن الخطاب الحداثي يمارس نقد التراث من داخله .

هذا النقد محكوم بقانونين يشكلان منطق النظر والتفكير الحداثي: قانون الأنسنة ، وقانون التاريخية .

قانون الأنسنة الذي يعني إعادة تصوير العلاقة بين الله والإنسان ، ليكون منطلق البحث المعرفي والوجودي من مما يريده الإنسان لا مما يريده الله .

وقانون التاريخية الذي يعني أن الشروط التاريخية الأرضية هي التي أنتجت النصوص التأسيسية في الإسلام لا أنها هي من تصنع التاريخ متعالية عن الزمان والمكان .

والمنتمون إلى الفكر الحداثي في العالم العربي يشكلون تيارا كاملا يمكن أن نعتبره هو الصوت البارز الذي يمثل التيار العلماني القائم اليوم[1] .

وقد خصص هذا التيار معظم كتاباته لإعادة النظر في النص الديني أو أصول الاستدلال في الإسلام قراءة وتاريخا وتدوينا وتوظيفا ، وكان جل الاهتمام بالسنة النبوية الشريفة من حيث الثبوت والحجية وما يتفرع عنهما من مسائل وقضايا ، لعل من أهمها –في نظري– مسألة تدوين السنة النبوية وما ارتبط بذلك من النهي عن كتابتها وتأخر تدوينها قرنا كاملا ، وما انجر عن ذلك من الكذب والزيادة والانتحال وتحريف الحقائق من طرف من اشتهروا أنهم من كبار الأئمة والعلماء من أمثال الأئمة: مالك والشافعي وابن حنبل والبخاري ومسلم .. وغيرهم كثير ، كما يذهب إلى ذلك أرباب هذا التيار ، من أمثال: توفيق صدقي وأحمد أمين ومحمود أبي رية ، ومحمد عابد الجابري ، ومحمد أركون ، وعبد المجيد شرفي ، وحسن حنفي ، وجورج طرابيشي ، وجمال البنا ، ومحمد شحرور ... وغيرهم كثير ..

فماهي أبرز طروحات الحداثيين العرب حول تدوين السنة النبوية ؟

وهل ما ساقه هؤلاء الحداثيون من آراء حول تدوين السنة ليس له نصيب من الوجاهة والصواب ؟ .

وهل في الأخبار الصحيحة والوقائع الثابتة ما يشهد بردّ هذه الفرية، ويثبت عكس ما ادعاه هؤلاء ؟ . وهل لتدوين السنة كل هذه الأهمية حتى يصير التشكيك فيها ضربا من الاعتداء على مصدرية السنة نفسها وحجيتها ؟ .

(1)- انظر موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام –دراسة تحليلية نقدية– د. محمد بن حجر القرني ، مطبعة الحميضي –الرياض– الطبعة الأولى 1434ه (من منشورات مجلة البيان –مركز البحوث والدراسات–) ص: (11، 12 ، 23، 26) باختصار وتصرف .

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الصفحات المعدودات وذلك بالحديث:

أولا: عن نماذج من شبهات الحداثيين حول تدوين السنة النبوية .

ثانيا: الرد بإيجاز عن هذه الشبهات وما تحويه من مغالطات .

ثالثا: عرض موجز عن كتابة السنة وأهم ما كتب في العهد النبوي.

فضلا عن المقدمة والخاتمة التي تحوي نتائج البحث

وتبرز أهمية البحث في هذا الموضوع كونه مدخلا أساسيا لكل طروحات الحداثيين اليوم ، فما من مسألة مثارة ، أو شبهة مطروحة ، إلا ويستصحب معها الحديث تلميحا أو تصريحا ، اختصارا أو استفاضة –حسب المقام– عن تأخر تدوين السنة وما ارتبط بجمعها من إشكالات ، وتشدد الرعيل الأول في عدم تجويز الكتابة ، بل والمبادرة إلى حرق المكتوب منها .

وتبرز خطورة هذه الفرية من كونها المقدمة الأساسية للإطاحة بمصدرية السنة برمتها ، لأنها تمثل حجر الزاوية فيما يتكأ عليه الحداثيون من التشكيك في ثبوت السنة وصحة نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن تأخر تدوينها حسب زعمهم تركها نهبا لكل متقول ومتصيد ، وما تضخم المجموع من الأحاديث في القرنين الثاني والثالث إلا مظهرا من مظاهر ذاك الانقطاع الحاصل في القرن الأول الذي كان الاعتماد فيه على الرواية الشفهية فقط كما يدعي أصحاب هذا التيار .

ومما زادنا رغبة في الكتابة حول هذا الموضوع زيادة على ما ذكرنا آنفا ، هو انتقال هذه الطروحات من كونها سابقا كانت مجرد أفكار تعبر عن آراء أصحابها في زوايا محددة من الصحف أو بعض الكتابات ، قاصرة على أنفار من المهتمين هنا وهناك ، حال بينها وبين الانتشار شيء من المناعة الذاتية بين أفراد الأمة ، فضلا عن ضعف

وسائل الاتصال ، حتى أضحت اليوم هذه الطروحات تستهدف نخبا مؤثرة في المجتمع بل وصل هذا التأثير إلى بعض طلاب العلوم الشرعية وإلى قطاع غير قليل من أبناء التيار الإسلامي .

أولا: نماذج من شبهات الحداثيين العرب

يمثل الحداثيون العرب رجع الصدى لما طرحه من قبلهم أساتذتهم المستشرقون من شبهات حول السنة النبوية عموما ، فبدعوى إعمال العقل وعدم تعطيله ، انطلقوا فيما سموه نقد التراث وفي الصلب من ذلك نقد السنة النبوية بما تمثله من مصدرية أساسية في التشريع الإسلامي ، ودورها الخطير في فهم القرآن الكريم وتفصيل ما أجمل فيه من أحكام وتقييد ما أطلق وتخصيص ما عمّم .

ولأن المستهدف من هذا النقد هو تعطيل مصدرية السنة ونفي حجيتها ، كان لا بد من الانطلاق من الأسس والقواعد والتي تبنى عليها هذه المصدرية والحجية ، ونعني بذلك ثبوتها وصحتها وهو ما يرتكز في تراث النقد الحديثي على صحة السند والمتن معا .

والمعيار الأساس للصحة هو عدالة الراوي وضبطه لمرويّه سماعا أو كتابة ، ومن هنا نفذ المستشرقون والحداثيون لاستشكال ثبوت الرواية وصحة نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم في ظل نهيه صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث وامتناع الصحابة عن ذلك طيلة قرن من الزمان .

فكيف لآلاف الحديث أن تستقر في العقول ، وتضبط حروفها ، دون تقييد وكتابة طيلة قرن كامل ؟ فهذا النهي والتشدد في الرواية دليل على رفض مصدريتها قياسا بالقرآن بالكريم من طرف النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، وما جمع من أحاديث في عصر التدوين إنما هو كذب وافتراء وتشويه للسنة النبوية .

وقد اخترنا عددا من رواد هذه المدرسة الحداثية لطرح شبهاتهم حول تدوين وكتابة السنة ومناقشتها .

1. شبهة الدكتور محمد توفيق صدقي في عدم كتابة السنة

نشر مقالين في مجلة "المنار" بعنوان " الإسلام هو القرآن وحده" وأنكر حجية السنة، وذكر من جملة حججه في ذلك قوله: (لو كانت السنة حجة لأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بكتابتها، ولعمل الصحابة والتابعون من بعد على جمعها وتدوينها، لما في ذلك من صيانتها من العبث والتبديل والخطأ والنسيان، وفي صيانتها من ذلك وصولها للمسلمين مقطوعا بصحتها فإن ظني الثبوت لا يصح الاحتجاج به، وقد قال تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم} وقال: {إن تتبعون إلا الظن} ولا يحصل القطع بثبوتها إلا بكتابتها كما هو الشأن في القرآن، ولكن الثابت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن كتابتها وأمر بمحو ما كتب منها، وكذلك فعل الصحابة والتابعون، فقد أخرج الحاكم عن عائشة أن أبا بكر - رضي الله عنه - أحرق خمسمائة حديث كتبها، وقال: «خشيت أن أموت فيكون فيها أحاديث عن رجل أئتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذلك» وكذلك فعل «زيد بن ثابت» إذ دخل على معاوية فسأله معاوية عن حديث فأخبره به، فأمر معاوية إنسانا بكتبه، فقال له «زيد»: إن رسول الله أمرنا ألا نكتب شيئأ من حديثه فمحاه، ولقد عزم «عمر» مرة أن يكتب السنن، ثم عدل عن ذلك وقال: «إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني - والله - لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا»، وكذلك طلب علي - رضي الله عنه - ممن كتب شيئا من الحديث أن يمحوه، وقد محا ابن مسعود صحيفة من الحديث كتبت عنه، وكره كتابة الحديث من التابعين «علقمة» و «عبيدة» و «القاسم بن محمد» و «الشعبي» و

«النخعي» و «منصور» و «مغيرة» و «الأعمش» والآثار عنهم مشهورة في كتب العلم، ولم يكتفوا بذلك، بل أثر عن بعضهم النهي عن التحديث أو التقليل منه، ولم تدون السنة إلا في عصور متأخرة بعد أن طرأ عليها الخطأ والنسيان، ودخل فيها التحريف والتغيير، وذلك مما يوجب الشك بها وعدم الاعتماد عليها في أخذ الأحكام.) [1] .

2. شبهة الأستاذ أحمد أمين في تأخر كتابة السنة

كان جد متأثر بما كتبه "جولد تسيهر" المستشرق اليهودي المجري، فقد تتلمذ على يديه وأمثاله من المستشرقين، وفي كتابيه " فجر الإسلام " و " ضُحاه " تعرض للكتابة عن الحديث وتدوينه فمزج السم بالدسم وخلط الحق بالباطل وهو في الحقيقة ردَّد ما كتبه "تسيهر"، إلاَّ أنه كان لبقًا وأشد تحرزًا حيث أنه بث السموم في أسلوب هادئ وحاول أنْ يصل إلى غايته من غير أنْ يثير ثائرة الجمهور عليه.

وأفرد الأستاذ في كتابه " فجر الإسلام " فصلاً خاصًا بالحديث حاول فيه أنْ يؤرِّخَ السُنَّةَ وتدوينها فبيَّن معنى السُنَّة وقيمتها التشريعية، ثم ذكر أنَّ السُنَّة لم تُدَوَّنْ في عهد الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بل كان بعض الصحابة يكتبون لأنفسهم فقط[2].

وشكك في خبر أمر عمر بن عبد العزيز لعامله على المدينة أبي بكر بن حزم بكتابة الحديث وإن ثبت الخبر فليس هناك ما يفيد أن الأمر قد نفذ، يقول في كتابه "ضحى الإسلام": «ولكن هل نفذ هذا الأمر؟ كل ما نعلمه أنه لم تصل إلينا هذه المجموعة ولم

---

(1)- انظر السنة ومكانتها في التشريع مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي – بيروت- الطبعة الثالثة: 1402/1982ص: 153-154.

(2)- من كتاب " السنة في مواجهة الأباطيل " محمد طاهر بن حكيم غلام رسول، الناشر: دعوة الحق (سلسلة شهرية تصدر مع مطلع كل شهر عربي – السَنَة الثانية: 1402 هـ ربيع الأول العدد (12)) [مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، ص: 58-59.

يشر إليها جامعو الحديث بعد ، ومن أجل هذا شك بعض الباحثين المستشرقين في هذا الخبر إذ لو جمع من هذا القبيل لكان من أهم المراجع لجامعي الحديث ، ولكن لا داعي إلى هذا الشك، فالخبر يروي لنا أن عمر أمر ولم يرو أن الجمع تم، فلعل موت عمر سريعا عدل بأبي بكر أن ينفذ ما أمر به»[1].

3. افتراءات محمد أبي رية حول مسألة تدوين السنة النبوية

كان أبو رية من أشد المتأثرين بأفكار المستشرقين فيما كتبوه بشأن السنة النبوية، وكان في أسلوبه مصادما لمشاعر للمسلمين، لما حمله كتابه من الجرأة والافتراء على السنة النبوية تاريخا ورجالا وحجية .

وكان من جملة افتراءاته في كتابه " أضواء على السنة النبوية" ، ادعاؤه أن الصحابة لم يعتنوا بجمع الأحاديث، حيث كتب عنوان «تدوين القرآن»: «مما يستلفت النظر البعيد ويسترعي العقل الرشيد أن عمر لما راعه تهاوي الصحابة في حرب اليمامة، وفزع إلى أبي بكر لكي يسارع إلى جمع القرآن وكتابته، لم يقل عنهم إنهم حملة الحديث بل قال: إنهم حملة القرآن ولم يطلب جمع الحديث وكتابته عندما فزع إلى أبي بكر بل جعل همه في جمع القرآن وحده وكتابته، بل إننا لم نجدهم وهم يجمعون القرآن ويدونونه – وكان ذلك على مشهد الصحابة جميعا – قد اقترح واحد منهم أن يجمعوا الحديث ويكتبونه بل انحصرت عنايتهم في جمع القرآن فحسب، وفي ذلك أقوى الأدلة وأصدق البراهين على أنهم لم يكونوا يعنون بأمر جمع الحديث، ولا أن يكون لهم فيه كتاب محفوظ يبقى على وجه الدهر كالقرآن»[2].

---

(1)- نقلا عن دفاع عن السنة ورد شبه المُسْتَشْرِقِينَ والكتاب المعاصرين، محمد أبو شُهبة ، مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة – الطبعة: الثانية، 1406 هـ – 1985 م،ص: 228 .

(2)- انظر المرجع السابق، ص: 223-224.

4. شبهة محمد عابد الجابري

انطلق المفكر الحداثي المغربي محمد عابد الجابري في كتابه "العقل الأخلاقي العربي" تحليلا لمنظومة القيم الإسلامية من حيث طبيعتها ومنطلقاتها ومصادرها ، من بسط مستفيض لما سمّاه بـ (القيم الكسروية "[1] التي روجها الموروث الفارسي مع مرادفاتها الدينية ومضاداتها السياسية[2]، والتي ترتكز في جوهرها على مفهوم الطاعة والولاء المطلق للسلطان ، وأن هذا المفهوم تسلل إلى المنظومة الفكرية الإسلامية عبر منافذ متعددة –حسب زعمه- ، واتخذته الدولتان الأموية والعباسية مرتكزا تتكأ عليه لضمان الطاعة والولاء من الرعية ، مما ولّد زمن الدولة الإسلامية في عصرها العباسي الأول ردود فعل مضادة لهذه القيم الكسروية ، تجلى في حركة تدوين العلوم وفي الصلب منها الحديث الشريف ، بما يعني أن تدوين السنة النبوية جاء في سياق رد الفعل لا الفعل ، وبما يؤكد نظريته وهي الرؤية المشتركة عند الحداثيين عموما في كون السنة لم تكتب إلا بعد قرن ويزيد ، مما جعل جمهرة الأحاديث في نظره في عداد الموضوع والمكذوب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول بهذا الصدد:

(ومع مرور الزمن أخذت ردود الفعل المضادة تتمثل في التجنيد لتدوين الموروث العربي والإسلامي في اللغة والشعر وأخبار العرب. كما في الحديث والتفسير والفقه)[3].

([1])- يقول محمد عابد الجابري: "وصفنا القيم التي روجها الموروث الفارسي قيما كسروية ، وقد عنينا بذلك أن المسلم الذي ينتظم هذه القيم ينطلق من "كسرى" (في الماضي كان يسمى عندنا خليفة أو ملكا أو سلطانا أو شيخا لمريد .. الخ أما اليوم ملك أو رئيس أو زعيم أو قائد أو ما شئت من الأسماء) ، كسرى الذي يخدمه الكل ولا يخدم هو أحدا ، والذي يجعل نفسه عند الحاجة –وسيطا بين الله والناس- " . العقل الأخلاقي العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، للدكتور محمد عابد الجابري. ط/ 1. 2001م. مركز دراسات الوحدة العربية–بيروت.ص: 249 .

([2])- انظر العقل الأخلاقي العربي ، ص: 170.

[3]- المرجع السابق ص/ 198.

ردّ الفعل هذا جعل كتّاب الحديث وجامعيه في عصر التدوين وتأكيدا على ثراء منظومة القيم في الإسلام ، وشمولها أدق التفاصيل ، ونفوذها إلى أبسط الأحوال والحركات والهيئات ، تحشو كتب السنة بعدد كبير من الأحاديث التي لا أساس لها – حسب زعمه دائما- في هذا يقول الجابري: (نضيف إلى ذلك ما يزخر به باب الآداب في كتب الفقه من الأدعية التي ينبغي أن ينطق بها "المسلم" قبيل النوم، وحين يصحو، وأثناء الاستحمام والتمنطق بالحزام، وأثناء الأكل، وحين يذهب إلى الضرورة، وإذا عطس، وإذا حلق شعر رأسه وقلم أظافره. وحين يضيء السراج إلخ. مما لم يكن معروفا زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة، فصار جزءا من الأخلاق الدينية منذ عصر التدوين)[1].

5.شبهة جورج طرابيشي

في ذات السياق يمضي- جورج طرابيشي- المفكر الحداثي السوري ، للتأكيد على غياب الكتابة والتدوين في الصدر الأول للإسلام ، للنهي عن ذلك ، وحتى ما قيل أنه كتب كان مصيره الحرق والإتلاف بأمر من بعض الخلفاء وفعل عدد من الأصحاب ، وعلامة ذلك واضحة عند "جورج" في عدم وجود حديث واحد يخلو من إسناد متعدد الرواة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرتبط مباشرة بمصدره وقائله الأول وهو النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا السياق يقول: " .. فإننا لا نملك حديثا واحدا نستطيع أن نقول إنه قاله الرسول من دون فاصل زمني، بل جميع ما في متاحنا من الأحاديث وهي تعد بعشرات الآلاف وبأكثر من ذلك بكثير إذا ما أضيف إليها ما صنف منها في باب الموضوعات إنما صيغتها واحدة لا تتبدل : ليس قال الرسول، بل قال ... قال... قال الرسول .. فلنا أن نقول إن مسافة زمنية لا تقل عن أربعة أجيال

[1]- المرجع نفسه. ص/ 170.

تفصل بين قال الرسول ، وقال... قال... قال الرسول"[1].

6.شبهة جمال البنا

ولقد كان المفكر الحداثي المصري جمال البنا ، أكثر صراحة وتفصيلا لهذه المسألة من سابقيه وإن كان يسير في ذات الركاب ، للوصول إلى ذات الهدف والغاية ، وهي تأخر التدوين إلى القرن الثاني مما كان مجالا خصبا للكذب والانتحال والزيادة والافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم .

فقد عنون الفصل الأول من كتابه "جناية قبيلة حدثنا" (تحريم التدوين والإقلال من الرواية). قال في مستهله: "في عهد الرسول وحتى نهاية الخلافة الراشدة كان الموقف من رواية الأحاديث يخضع لمبدأين بينهما الرسول صلى الله عليه وسلم وتابعه عليهما الخلفاء الراشدون:

المبدأ الأول: تحريم كتابة الحديث. **المبدأ الثاني:** إباحة تناقله شفاها مع الإقلال من الرواية)(2)

ثم أخذ في الرد على أدلة من قال بجوازها ، فوقف عند ما ورد من إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص بالكتابة ، وكذا دعوته الصحابة لكتابة خطبة حجة الوداع لأبي شاه اليمني ، فقال: (إن هذه الأحاديث إذا صحت – وفي النفس شيء من رواية عبد الله بن عمرو – فإنها لا تعدو إلا استثناء من المبدأ العام ولشخص واحد ، ولذا لا تعد حجة في التصريح بكتابة الحديث)(3)

[1] – من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ، جورج طرابيشي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط:1، 2010م. ص:203.

(2)- جناية قبيلة حدثنا ، جمال البنا ، دار الفكر الإسلامي القاهرة ، ص: 7 .

(3)- المرجع نفسه ، ص: 8 .

ثم شرع في سرد أدلته على تحريم الكتابة بعدد من الأحاديث والآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم و الصحابة والتابعين مما هو مشتهر ومعروف[1] .

ثانيا: الردود على هذه الشبهات والدعاوى

1. رد السباعي على شبهة محمد توفيق صدقي في ادعائه عدم كتابة السنة:

أن المصلحة حينئذ كانت تقتضي تظافر كتاب الصحابة - نظرا لقلتهم - على كتابة القرآن وتدوينه، وبتظافر المسلمين على حفظ كتاب الله خشية من الضياع واختلاط شيء به، وما ورد من النهي عن كتابة الحديث إنما كان نهيا عن تدوينه رسميا كالقرآن، أما أن يكتب الكاتب لنفسه فقد ثبت وقوعه في عهد الرسول - ﷺ-.

وليست الحجية مقصورة على الكتابة حتى يقال: لو كانت حجية السنة مقصودة للنبي لأمر بكتابتها، فإن الحجية تثبت بأشياء كثيرة: منها التواتر، ومنها نقل العدول الثقات، ومنها الكتابة .

وليس النقل عن طريق الحفظ بأقل صحة وضبطا من الكتابة . وامتناع بعضهم عن الكتابة أو الرواية ليس إلا من قبيل الاحتياط والتوقي في الدين .

أما القول بأن السنة قد تأخر تدوينها فزالت الثقة بضبطها وأصبحت مجالا للظن والظن لا يجوز في دين الله. فهذا قول من لم يقف على جهود العلماء في مكافحة التحريف والوضع .

وساق لما لخصته في الإجابة عن الشبهة الحجج والبراهين فانظره [2] .

---

(1)- انظر نفس الرجع ، ص (8 -15) .

(2)- انظر "السنة ومكانتها في التشريع " ص: 158-161.

1. رد أبي شهبة على شبهة أحمد أمين

ذكر أبو شهبة في معرض رده على أبي رية الذي كان مجرد أمعة لأحمد أمين فيما ادعاه في هذه المسألة حيث قال: " من أين بدا لأحمد أمين أن عمر بن عبد العزيز لما عاجلته المنية انصرف ابن حزم عن كتابة الحديث وكذا انصرف كل من كانوا يكتبون معه؟ ولم لا يكون الأمر على خلاف هذا وأنهم سارعوا إلى جمع الأحاديث وتدوينها – وهذا هو الواقع – ولا سيما وهو يعلمون أن السنة هي الأصل الثاني من أصول التشريع وأنهم حينما يقومون بجمعها وتدوينها وتنقيتها مما علق بها إنما يقومون بواجب ديني كريم فهذا هو الظن الذي يليق بهؤلاء السادة الذين هم من خير القرون بشهادة الرسول – ﷺ–. ومما ينبغي أن يعلم أن التدوين، وإن كان بدأ بصفة عامة على رأس المائة الأولى، إلا أنه بدأ بصفة خاصة من عهد الرسول وفي حياته فقد كان بعض الصحابة والتابعين يقيدون الأحاديث والسنن وفي الروايات الصحيحة الموثوق بها ما يدل على ما أقول"[1].

2. رد أبي شهبة شبهة أبي رية فيما يتعلق بعدم تدوين السنة باكرا

إن الحكمة كانت تقتضي في ذلك الوقت المسارعة إلى جمع القرآن في مصحف واحد خشية أن يضيع شيء منه، أو من أصله المكتوب بموت جمهور القراء، أما الأحاديث فلم تكن الحاجة ماسة إلى جمعها حينئذ ولا سيما أن الأمة لم تكلف بحفظ ألفاظها والتعبد بها كما كلفت بالقرآن، وأن المعول عليه فيها المعنى، لا اللفظ، وأنهم نهوا عن كتابتها حتى لا تختلط بالقرآن، فالصحابة لم يفعلوا إلا أنهم قدموا الأهم على المهم والأصل على الفرع فلما دعت الحاجة إلى جمع الأحاديث والمحافظة عليها من الضياع والتباس الحق بالباطل أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بجمعها بصفة رسمية

([1])- نقلا عن المرجع نفسه، ص: 202-203 .

عامة ، فكان ذلك بدأ التدوين العام، أما التدوين الخاص فقد تحقق فعلا من قبل فقد كان يكتب السنة بعض الصحابة والتابعين، ولعل مما يلقم المؤلف حجرا، ويجعله يفض بريقه، ويرد عليه فريته من أن الصحابة لم يهتموا بالأحاديث اهتمامهم بالقرآن، ولم يدونوها كما دونوا القرآن ما رواه البيهقي في " المدخل " عن عروة بن الزبير، أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له قال: «إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا». فهل بعد هذا النص الصريح يزعم زاعم أن الصحابة لم يكونوا يعنون بأمر جمع الحديث ولا أن يكون لهم فيه كتاب محفوظ؟!![1] .

3. الرد على شبهة محمد عابد الجابري

إن تدوين الحديث الشريف وجمعه زمن عمر بن عبد العزيز أملته الحاجة التي عبر عنها هو نفسه روى البخاري في صحيحه[2]: قال "وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه؛ فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء).

ولم يقتصر الأمر على واليه على المدينة أبي بكر بن حزم، وإنما كان عاما لكل عماله على الأقاليم، فقد أخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان[3]: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه".

---

(1)- انظر دفاع عن السنة أبو شهبة، ص: 223-224.

(2)- صحيح البخاري ، كتاب (العلم) باب (كيف يقبض العلم) (31/1) .

(3)- تاريخ أصبهان، لأبي نعيم الأصبهاني، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى، 1410 هـ-1990م، (366/1) .

هذه الحركة العلمية التي قام بها عمر بن عبد العزيز لم تولد من العدم ، ولم تبن على غير أساس سابق ، بل اعتمدت في جانب كبير منها على تلكم الكتابات الفردية التي كان يحتفظ بها عديد الصحابة والتابعين ممن كانوا يكتبون لأنفسهم للمذاكرة والحفظ.

يقول عماد السيد الشربيني : (عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - حينما أمر بتدوين السنة لم يبدأ ذلك من فراغ، ولكنه اعتمد على أصول مكتوبة كانت تملأ أرجاء العالم الإسلامي كله، من خلال روح علمية نشطة، أشعلها الإسلام في أتباعه، فأصبحوا يتقربون إلى الله تعالى بأن يزدادوا في كل يوم علما، وخير العلوم-قطعاً- ما كان متعلقاً بالقران والسنة) (1).

وقد بسط الخطيب البغدادي الكلام في الرد على فرية النهي الشامل عن الكتابة وعدم تقييد وكتابة الحديث في زمن الصحابة والتابعين في كتابه "تقييد العلم" .

فقد أفرد ثلاثة فصول من القسم الثالث من الكتاب للأحاديث والآثار الواردة في الإذن بكتابة العلم:

الأول: فيما ورد مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقد أورد فيه روايات كثيرة منها الصحيح ، ومنها الضعيف وهي كثيرة وبعضها قد يعتضد.

والفصل الثاني: عَنْوَنه بقوله: باب ذكر من رُوي عنه من الصحابة رضي الله عنهم أنه كتب العلم أو أمر بكتابته.

وقد أورد في هذا الفصل روايات كثيرة عنهم وأكثرها صحيحة إذ منها ما هو في الصحاح، ومنها ما هو في السنن وغيرها .

(1)- كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها ، عماد السيد محمد إسماعيل الشربينى ، الطبعة: الأولى / 1422 هـ - 2002 م ، ص: 379 .

أما الفصل الثالث من هذا القسم فقد خصصه لذكر الروايات عن التابعين في ذلك: حيث ساق بأسانيده إلى أئمةٍ وكبار التابعين تلك الروايات عنهم في كتابتهم للحديث وإذنهم لتلاميذهم بل وحثِّهم على كتابة الحديث[1].

وفي هذا العصر ـ أبدع الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في كتابه "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" حيث أفرد موضوع التدوين في القرن الأول الهجري بفصلين كاملين من الباب الرابع وذكر فيهما الكثير ممن كانت لديه كتابات من الصحابة والتابعين [2] .

فكل هذا وأكثر مما ذكرنا وسنذكر فيما تبقى من هذا البحث ما يرد فرية الجابري من كون التدوين قد تأخر ولم تكون هناك كتابات يمكن الاعتماد عليها وبأن حركة الكتابة والتدوين كانت عبارة عن رد فعل .

أما استغلال هذا الفراغ المدعى في الكذب والاختلاق على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه فرية متهافتة ، يرد عليها أبسط طلاب العلم فضلا عن كبرائهم ، فـ (كثرة الوضاعين قابله كثرة وافرة من علماء الحديث ونقاده الذين ما تركوا شاردة ولا واردة تتعلق بالحديث إلا محّصوها ودرسوها وبيّنوا صدقها من زيفها، وأسسوا في سبيل ذلك "علم دراية الحديث" أي علم مصطلح الحديث وقواعده، ليكون ميزانا ضابطا لهذه المسألة وغيرها عبر الأزمان .

(1)- تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري ، محمد بن مطر الزهراني ، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الأولى، 1417هـ/1996م ، (ص/69-71) .

(2)- انظر دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي بيروت الطبعة (1413ه/1992) (ص/84-167) .

إنهم حراس الدين خلفاء الله وجنوده في أرضه ، إنهم الجهابذة الذين قال فيه، جاء في الروايات أن هارون الرشيد لما أخذ زنديقاً فأمر بضرب عنقه فقال له الزنديق : لِمَ تضرب عنقي ؟ قال : لأريح العباد منك ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أين أنت من ألف حديث وفي رواية أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم ، أحرِّم فيها الحلال ، وأحلل فيها الحرام، ما قال النبي منها حرفاً ؟ فقال له هارون الرشيد: أين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري و عبد الله بن المبارك ؟ فإنهما ينخلانها نخلاً فيخرجانها حرفاً حرفاً.

يقول الأستاذ محمد أسد في كتابه: "الإسلام على مفترق الطرق" : « فوجود الأحاديث الموضوعة إذن لا يمكن أن يكون دليلاً على ضعف نظام الحديث في مجموعه ؛ لأن تلك الأحاديث الموضوعة لم تَخْفَ قط على المحدثين كما يزعم بعض النقاد الأوروبيين عن سذاجة ، وتابعهم على ذلك بعض أدعياء من أبناء أمتنا الإسلامية »)[1].

4. الرد على شبهة جورج طرابيشي

رغم تأخر التدوين الكلي للسنة النبوية ، إلا أنه قد وجد من كان يكتب الحديث حتى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن عمرو، أما بعد ذلك فقد كثر ، إلا أن المعتمد هو الحفظ والمشافهة[2] ، فلما بدأ الحفظ يقل، وكثر الوضع عن النبي عمد الأئمة إلى التدوين شيئا فشيئا، ومعلوم أن كل علم في ابتدائه على غير المعهود فيه يكون قليلا ثم يتطور إلى أن يستقر.

([1])–انظر " شبهات حول حجية السنة النبوية ومكانتها التشريعية والرد عليها"د . عماد الشربيني، مقال، مجلة البيان – الرياض – العدد 152 ص: 20 .

[2] – ينظر تقييد العلم تقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، تحقيق : يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، الطبعة الثانية ، 1974 ص65 وما بعدها .

أما دعوى عدم وجود حديث إلا وهو مرتبط بسلسلة إسناد من راويها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، مما اعتبره جورج طرابيشي مؤشرا على تأخر الكتابة ومنها كانت علة الكذب والاختلاق ، فإن ذلك يعد عكس ما يدعيه ، مبعث فخر واعتزاز لهذه الأمة حيث تميزت عن غيرها بخصيصة الإسناد ، والذي كان دافع اشتراطه ، التأكد من ثبوت الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك باشتراط اتصاله وعدالة ناقليه وضبطهم مما هو معروف عند المحدثين .

5. الرد عن شبهة جمال البنا

أما دعوى جمال البنا بإطلاق تحريم الكتابة ، وأن ما ورد من إذن لبعضهم لا يعدو إلا استثناء من المبدأ العام ولشخص واحد ، ولا يعد ذلك حجة في التصريح بكتابة الحديث .

فيكفي في الرد عليه ما أوردناه في الرد على غيره من الحداثيين العرب ، بأن ذلك لم يكن استثناء بل كان منتشرا ومعروفا ، كما أثبت ذلك الخطيب البغدادي في تقييد العلم وكذا الدكتور محمد مصطفى الأعظمي مما ذكرناه آنفا ..

ثالثا: الردود العامة على مجمل شبهات الحداثيين العرب حول تأخر كتابة السنة النبوية

مسألتان مهمتان في معرض الرد على مجمل الشبهات المتعلقة بتأخر كتابة السنة نسلط عليهما الضوء وهما:

- ضرورة التفريق بين الكتابة والتدوين
- عرض موجز عن كتابة السنة وأهم ما كتب في العهد النبوي

1. ضرورة التفريق بين الكتابة والتدوين

بقي أن نشير هنا ردا على جميع الحداثيين العرب ، بل وحتى على بعض من وقع في هذه المغالطة من علماء الإسلام فيما يتعلق بأصل هذه الشبهة ومنشؤها أن الكثيرين خلطوا بين النهى عن كتابة السنة، وبين تدوينها حيث فهموا خطأً أن التدوين هو الكتابة، وعليه فإن السنة النبوية – ظلت محفوظة في الصدور لم تكتب إلا في نهاية القرن الأول الهجري في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–

ولو أن المعاصرين فهموا حقيقة الكتابة، وحقيقة التدوين، وأدركوا الفرق بينهما، لما تعارضت النصوص في فهمهم، ولما صح تشكيك أعداء الإسلام في السنة النبوية بدعوى تأخر تدوينها مدعين أنه دخلها الزيف، لأن العلم الذي يظل قرناً دون تسجيل لابد وأن يعتريه تغيير ويدخله التحريف، فإن الذهن يغفل والذاكرة تنسى، أما القلم فهو حصن آمان لما يدون به .

فالكتابة مطلق خط الشيء، دون مراعاة لجمع الصحف المكتوبة في إطار يجمعها.

أما التدوين فمرحلة تالية للكتابة ويكون بجمع الصحف المكتوبة فى ديوان يحفظها. **وأما التصنيف**؛ فهو أدق من التدوين، فهو ترتيب ما دوّن في فصول محدودة، وأبواب مميزة .

وعلى ذلك فقول الأئمة إن السنة دونت في نهاية القرن الأول لا يفيد أنها لم تكتب طيلة هذا القرن، بل يفيد: أنها كانت مكتوبة لكنها لم تصل لدرجة التدوين وهو: جمع الصحف في دفتر. وما فهمه المعاصرون، من أن التدوين هو الكتابة، فهو خطأ منشؤه عدم التمييز بين الكتابة والتدوين.

وبالتالي فالمقولة "أول من دون العلم ابن شهاب الزهري" تم ترجمتها خطأً بمعنى: أول من كتب العلم (الحديث) كان ابن شهاب الزهري، وانطلاقاً من هذا التفسير

الخاطئ انبثقت نظرية أن كتابة الحديث بدأت متأخرة للغاية حتى عصر الزهري في نهاية القرن الأول، أو بداية القرن، الثاني الهجري، ... ولهذا فالمقولة السابقة يجب تفسيرها على أساس أن أول من دون أو صنف المجموعات المكتوبة من الأحاديث كان ابن شهاب الزهري[1] .

وفي عرضنا الآتي تفصيلا للمراحل التي مرت عليها السنة من الكتابات الفردية إلى التدوين الرسمي أبلغ رد على من ذكرنا من الحداثيين العرب ومن لم نذكر ممن يشككون في كتابة السنة .

2. عرض موجز عن كتابة السنة وأهم ما كتب في العهد النبوي

إن رسالة الإسلام التي كان منطلق الوحي فيها قوله تعالى :"اقرأ" جعلت من أولى أولوياتها الاهتمام بالعلم والمعرفة وأدوات ذلك من قراءة وكتابة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه المتعلمين إلى ضرورة تحمل مسؤولية محو أمية من لا يعرف، فقد أمر عبد الله بن سعيد بن العاص أن يعلم الكتابة بالمدينة، وعلم عبادة بن الصمت عددا من أهل الصُفّة القراءة والكتابة، والأمر نفسه قام به أبي بن كعب، كما جعل النبي صلى الله عليه وسلم فداء بعض أسرى بدر من المشركين أن يعلم عددا من المسلمين الكتابة ، كما كان يرسل البعثات الخارجية إلى بعض البطون والقبائل والبلاد البعيدة لتعليم من أسلم أحكام الدين ومبادئ القراءة والكتابة ، وكان من ثمار سياسته التعليمية أن تجمع حوله صلى الله عليه وسلم ما يقرب من خمسين كاتبا بين من كتب له بصفة دائمة أو مؤقتة، وفيهم من توجه إلى الكتابة التخصصية كعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب الذين كتبوا الوحي، والزبير بن العوام وجهم بن الصلت كتبوا أموال الصدقات، وعبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة كانا

(1)- انظر كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها ، عماد السيد محمد إسماعيل الشربينى ، (ص/376-378) .

يكتبان بين الناس المداينات وسائر العقود، بل إن زيد بن ثابت تعلم لغة اليهود السريانية بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذقها في أيام قليلة، بغية الكتابة إليهم وقراءة ما ورد منهم من مراسلات[1].

فكان من الطبيعي بعد هذه الجهود أن يُكتب جزء من السنة من خلال العهود والمواثيق والمراسلات وبعض الكتابات المتخصصة في أحكام محددة وبجهود فردية كما سيأتي الإشارة إليه .

النهي النبوي عن كتابة السنة:

قد يبدو لأول وهلة أن ما قررناه سلفا من وجود كتابات للسنة بتوجيه أو من غير توجيه من النبي صلى الله عليه وسلم يصطدم مع ما ثبت في السنة نفسها من النهي عن كتابتها كما ورد ذلك من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا: "لا تكتبوا عني، و من كتب عني غير القرآن فليمحه و حدثوا عني و لا حرج، و من كذب علي – قال همام أحسبه قال – فليتبوأ مقعده من النار"[2] .

الإذن النبوي بكتابة السنة:

صحت أحاديث كثيرة في الإذن و الأمر بكتابة السنة، و منها:

1) قوله صلى الله عليه و سلم في حجة الوداع: "اكتبوا لأبي شاه" [3]. وكون هذا الأمر بالكتابة لأبي شاه اليمني في حجة الوداع يؤكد أن آخر الأمرين كان الإذن

---

(1)- انظر دراسات في الحديث النبوي الأعظمي، (ج1/ 50-55) – باختصار وتصرف-.

(2)- صحيح مسلم كتاب: الزهد والرقائق، باب: باب التثبت فى الحديث وحكم كتابة العلم (229/8)برقم -7702-.

(3)-رواه البخاري كتاب "اللقطة" باب "كيف تعرف لقطة أهل مكة" برقم: 2302 ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة ، 1407 – 1987، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا (857/2) .ومسلم كتاب "الحج"

بالكتابة[1].

2) قوله صلى الله عليه و سلم لعبد الله بن عمرو مشيرا بإصبعه إلى فمه: «اكتُب فَوَ الَّذِي نفسِي بِيَده ما يخرج منه إِلَّا حَقٌّ»[2] .

3) عن ابن عباس، قال: لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده»[3].

الجمع بين أحاديث النهي و أحاديث الأمر و الإذن بكتابة السنة[4]:

للعلماء في الجمع بين أحاديث الأمر بكتابة السنة و أحاديث كراهة ذلك أقوال كثيرة، منها ما يلي:

1) أن أحاديث الأمر بكتابة السنة قد نسخت أحاديث النهي عن كتابتها، و ذلك

= باب "تحريم مكة وصيدها وخلاها" برقم: (1355) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – (988/2) .

(1)-قال الإمام الصنعاني: "أما قول البلقيني – تعليقا على حديث أبي شاه - يجوز أن يُدعي أنها واقعة عين فقد نظره السخاوي وكأن وجهه أن الأصل التشريع العام" انظر: توضيح الأفكار للصنعاني، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت- الطبعة الأولى 1417هـ/1997م، (217/2) .

(2)-أخرجه الإمام أحمد، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1995 م، برقم: 6802 (315/6) - وقد حكم شاكر بصحة إسناده-، و أبو داود، كتاب " العلم" باب "في كتابة العلم"برقم: 3646 محمد محيي الدين عبد الحميد، ، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت (318/3)، وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة، انظر: السلسلة الصحيحة، برقم: 1532، مكتبة المعارف – الرياض، (45/4).

(3)-رواه البخاري كتاب"العلم" باب "كتابة العلم" برقم: 114 ، (54/1) .ومسلم كتاب "الوصية" باب "ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه" برقم: (1637) (1257/3) .

(4)- أوجه الجمع هذه مستفادة من المصادر الآتية: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، المكتب الاسلامي، الطبعة الثانية 1419هـ - 1999م، ص: 411، والتقييد والإيضاح، ص: 203، فتح المغيث (162/2-163)، تدريب الراوي (67/2) –طبعة عبد الوهاب عبد اللطيف مطبعة الرياض الحديثة الرياض -.

لأن النهي كان في أول الإسلام خشية اختلاط الحديث بالقرآن.

2) أن النهي عن الكتابة لمن كان حفظه قويا حتى لا يتكل على الكتابة و يترك الحفظ، و أما من كان حفظه ضعيفا، فقد أذن له أن يكتب إذا كان ضابطا.

3) أن النهي خاص بكتابة القرآن و الحديث في صحيفة واحدة خشية الاشتباه على الجهلاء به، ويكون الإذن فيها لمن عرف منه عدم الاشتباه.

4) أن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره والإذن في غير ذلك.

5) أن النهي يخص من لا يتقن الكتابة فيخشى عليه الغلط، بخلاف من يتقن كعبد الله بن عمرو .

ومذهب الإذن بالكتابة حكاه القاضي عياض عن أكثر الصحابة والتابعين[1] .

ثم حصل الاتفاق على جواز ذلك واستحبابه في عصر أتباع التابعين بعد أن زالت كل موانع الكتابة، بل توافرت دواعي جمع السنة وكتابتها.

قال الحافظ ابن كثير: "وقد حُكي إجماع العلماء في الأعصار المتأخرة على تسويغ كتابة الحديث وهذا أمر مستفيض، شائع ذائع، من غير نكير "[2].

و من أهم ما كتب من السنة في العهد النبوي[3] هي كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك و الحكام في عصره، وإلى القبائل داعيا إياهم إلى الإسلام، و إلى الولاة و القضاة و العمال فيما يتعلق بتدبير شؤون الأقاليم الإسلامية وأحوالها، وفي بيان أحكام

---

(1)- توضيح الأفكار (2/217) .

(2)-الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، الحافظ ابن كثير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعة: الثانية، ص: 132 .

(3)-انظر منهج النقد، ص: 47 – بتصرف -.

الدين، وهي كتب كثيرة تشتمل على مهمات أحكام الإسلام وعقائده، وخطوطه العريضة، وبيان الأنصبة والمقادير الشرعية للزكاة، والديات والحدود والمحرمات وغير ذلك، وجملة من المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات، كصلح الحديبية، وصلح تبوك، وأهمها على الإطلاق وثيقة كانت أشبه بدستور للتعايش المشترك بين المسلمين مهاجرين وأنصار، ومن جاورهم من اليهود، ولفظ الكتابة صريح في مطلعها: "هذا كتاب محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس "(1) .

و أما ما كتبه الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بغرض الحفظ أو الإفادة بها فهي كثيرة نذكر منها ما يأتي(2).

1- صحيفة أبي بكر الصديق: روى الخطيب(3) بسنده إلى أنس بن مالك: "إن أبا بكر الصديق بعثه مصدِّقاً، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة، وعليه خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه: "هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين" الحديث بطوله(4) .

2- الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص، فعن مجاهد بن جبر قال:

(1)-انظر السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، (106/2) .

(2)- عقد د. محمد مصطفى الأعظمي فصلا ماتعا في كتابه الفريد "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" تحت عنوان "كتابة الصحابة والكتابة عنهم" ذكر فيهم عددا كبيرا من الصحابة الذين كتبوا سماعاتهم أو بعضها من رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده أو بعده فانظره.

(3)-تقييد العلم للخطيب البغدادي، الناشر: إحياء السنة النبوية – بيروت – ص: 87.

(4)-تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره ، محمد بن مطر الزهراني، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 417هـ/1996م، ص: 78 .

دخلت على عبد الله بن عمرو بن العاص فتناولت صحيفة تحت رأسه فتمنّع عليّ، فقلت تمنعنى شيئا من كتبك فقال: إن هذه الصحيفة الصادقة التي سمعتها من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس بيني وبينه أحد(1)

(و قد اشتملت على ألف حديث كما ذكر ابن الأثير، ومحتواها محفوظ في مسند أحمد بن حنبل(2) –تحت عنوان: "مسند عبد الله بن عمرو بن العاص"–، حتى ليصح أن نصفها بأنها أصدق وثيقة تاريخية تثبت كتابة الحديث على عهده صلوات الله عليه، وهذه الوثيقة كتبت بموجب فتوى النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو وإرشاده الحكيم له؛ فقد جاء عبد الله يستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الكتابة قائلا: أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: "نعم"، قال: في الرضا والغضب؟ قال: "نعم؛ فإني لا أقول في ذلك إلا حقا"(3)) (4).

ودليل اشتغال عبد الله بن عمرو بكتابة هذه الصحيفة وسواها من الصحف أيضا قول أبي هريرة الصحابي الجليل: "ما في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني إلا ما كان عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب وكنت لا أكتب"(5)

(1)- رواه ابن عساكر في تاريخه، انظر تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - 1415 هـ - 1995 م – (262/31) .

(2)-أخرج الإمام أحمد كثيرا من أحاديثها من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده – وهو عبد الله بن عمرو بن العاص – وكانت عزيزة جدا على عبد الله بن عمرو، حتى كان يقول: (ما يرغّبني في الحياة إلا الصادقة والوهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، وأما الوهط ، فأرض تصدق بها عمرو بن العاص. كان يقوم عليها)، رواه الدارمي في سننه (436/1) برقم: 513، تحقيق، حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، م ع السعودية، ط: 1، 1412 هـ - 2000 م

(3)-أحمد في مسنده – طبعة شاكر- (401/6) برقم: 6931،وأبو داود في سننه كتاب "العلم" باب "في كتاب العلم" برقم: 3646، (318/3)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله برقم: 388 (199/1) .

(4)-تدوين السنة ومنزلتها، عبد المنعم السيد نجم، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: السنة الحادية عشر - العدد الثالث - ربيع الأول 1399هـ، ص: 37 .

(5)-رواه البخاري، (54/1) كتاب (العلم) باب (كتابة العلم) برقم:113.

3- صحيفة سَمُرة بن جندب ، صحيفة تركها سمرة رضي الله عنه لبنيه، وورثها ابنه سليمان ورواها عنه[1]، جمع فيها سمرة أحاديث كثيرة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي التي يقول فيها ابن سيرين: "في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير"[2] .

4- صحيفة علي بن أبي طالب وهي صحيفة صغيرة تشتمل على العقل -أي مقادير الديات- وعلى أحكام فكاك الأسير[3]. وهناك دلالة قوية من نصوص الصحيفة على أنها كتبت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] . أخرج البخاري[5] وغيره عن أبي جحيفة قال: قلت: لعلي بن أبي طالب: هل عندكم[6] كتاب؟ قال: قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال العقل[7]. وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

---

(1)-تدوين السنة ومنزلتها، ص: 36 ، جاء في كتب التراجم والجرح والتعديل، في ترجمة سليمان: "روى عن أبيه نسخة كبيرة" انظر تهذيب التهذيب (4/498)، وقد خرّج منها الطبراني في معجمه الكبير -أي برواية ابنه سليمان فقط-: 110 حديث، انظر المعجم الكبير للطبراني، تحقيق، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية، من الحديث رقم: 6995 إلى 7105 (7/245-269)، حتى قيل إن الطبراني روى معظمها عن ابنه سليمان، هذا دون احتساب أحاديث سمرة عن غير بنيه وهي كثيرة في المعجم وفي غيره .

(2)-تهذيب التهذيب، الحافظ ابن حجر، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط:1، 1326هـ، (4/236).

(3)-انظر منهج النقد، د/ نور الدين عتر، دار الفكر دمشق-سورية، ط:8 1418هـ -1997م ص:46 .

(4)-كتابة السنة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأثرها في حفظ السنة النبوية، رفعت بن فوزي عبد المطلب، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة- ص: 17.

(5)-انظر صحيح البخاري كتاب (العلم)، باب (كتابة العلم)، برقم: 111، (1/53).

(6)-الخطاب لعلي، والجمع إما لإرادته مع بقية أهل البيت، أو للتعظيم. انظر كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري . محمَّد الخَضِر بن أحمد الجكني الشنقيطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1995 م (4/5) .

(7)-قال الأزهريُّ العَقْلُ في كلام العَرَبِ الدِّيَةُ سُمِّيَتْ عَقْلاً لأَنَّ الدِّيَة كانت في الجَاهِليَّة إبلاً لأنها كانت أَمْوَالُهم فسمّيت الدِّيَةُ عَقْلاً لأن العَاقِلَ كانت تُكلَّف أن تَسُوقَ إبِلَ الدِّيَةِ إلى فِناءِ وَرَثَةِ المَقْتُولِ فَيَعْقِلُها بالعُقْلِ ويسلمها إلى أوليائه. انظر غريب الحديث، لابن الجوزي تح: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1985، (2/118) .

5- صحيفة سعد بن عبادة الصحابي الجليل : ذكرها الإمام الترمذي[1] - رحمه الله - في كتاب الأحكام من " سننه "، باب (ما جاء في اليمين مع الشاهد). قال ربيعة الرأي: وأخبرني ابن لسعد بن عبادة قال: (وجدنا في كتاب سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى باليمين مع الشاهد). وكان سعد بن عبادة في الجاهلية يكتب بالعربية[2].

6- كتاب معاذ بن جبل، فقد روى الحاكم في المستدرك[3] عن موسى بن طلحة قال : (عندنا كتاب معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه إنما أخذ الصدقة من الحنطة و الشعير و الزبيب و التمر).

7- صحيفة جابر بن عبد الله: "له منسك صغير في الحج أخرجه مسلمٌ" قاله الذهبي في "تذكرة الحفاظ "[4] (ويحتمل أنْ يكون في بعض أحاديثها ذكر حجَّة الوداع التي ألقى فيها الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خطبته الجامعة، ويوشك هذا الاحتمال أنْ يصبح يقيناً إذا عرفنا أنَّ التابعي الجليل قتادة بن دعامة السَدُوسي كان يُكْبِرُ من قيمة هذه الصحيفة ويقول: «لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة»[5]) [6] .

8- صحيفة رافع بن خديج الأنصاري: كان عنده أحاديث عن النبي صلى الله عليه

---

(1)-(619/3) برقم: 1343 – طبعة شاكر-. يقول د. نور الدين عتر: " ولكن لم نعثر على غير هذا الحديث من هذا الكتاب. ولعل كثيرا من الأحاديث التي رويت عن سعد من هذا الكتاب" انظر منهج النقد، ص: 47 .

(2)-انظر الطبقات الكبرى لابن سعد، صادر -بيروت- دار (389/7)،

(3)- المستدرك على الصحيحين كتاب (الزكاة) برقم: 1457 (558/1) .

(4)-تذكرة الحفاظ، الإمام الذهبى، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت-، الطبعة الأولى 1419هـ- 1998م، (36/1) .

(5)-انظر التاريخ الكبير، للإمام البخاري، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن- (186/7). وقول قتادة لا يعني أنه كان يروي عن جابر مباشرة، بل إننا لا نجد له في الكتب الستة عن جابر إلا حديثا واحدا، أورده البخاري في صحيحه على الشك بين روايته عن أنس أو جابر . انظر تعليقات أبي منذر المنياوي في شرح الموقظة، المكتبة الشاملة -مصر- 2011/1432، ص: 147 .

(6)-انظر علوم الحديث ومصطلحه، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت،ط15، 1984م ص:26

وسلم مكتوبة على أديم[1]. عن نافع بن جبير، أن مروان بن الحكم، خطب الناس، فذكر مكة وأهلها وحرمتها، ولم يذكر المدينة وأهلها وحرمتها، فناداه رافع بن خديج، فقال: «ما لي أسمعك ذكرت مكة وأهلها وحرمتها، ولم تذكر المدينة وأهلها وحرمتها، وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتيها»، " وذلك عندنا في أديم خولاني[2] إن شئت أقرأتكه، قال: فسكت مروان، ثم قال: قد سمعت بعض ذلك "[3]

ومن خلال هذه النماذج مما كتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فضلا عما كتب بعده على يد الصحابة والتابعين – مما لم نذكره هنا – دليل قاطع على كذب المستشرقين ومن تأثر بهم من الحداثيين العرب في ادعائهم تأخر كتابة السنّة مما يضعف الثقة بها، وقد رأينا أن هذه النماذج محفوظة في دواوين السنة وكتب المغازي والسير والتواريخ وغيرها .

الخاتمة

لا شك أن تناول موضوع تدوين السنة بالعمق والتحليل اللازمين من الأهمية بمكان في هذا العصر، من منطلق تزايد المشككين في حجية السنة وإن بدوافع مختلفة ومن زوايا متعددة، لعل أهمها موضوع تأخر كتابة السنة النبوية قياسا بالقرآن الكريم .

وقد خلصت دراستي هذه إلى عدد من النتائج، أهمها:

1. أن الشبهات المتعلقة بالسنة النبوية عموما وفي موضوع التدوين خصوصا، مهما تعددت فهي تعود في أصولها إلى من ذكرنا من المستشرقين والحداثيين من بلاد العرب والمسلمين .

---

(1)- دراسات في الحديث النبوي (107/1).

(2)- جلد ينسب إلى خولان من اليمن. مطالع الأنوار على صحاح الآثار، إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، أبو إسحاق ابن قرقول ، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – دولة قطر – الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م، (482/2) .

(3)- رواه مسلم في صحيحه، كتاب (الحج) باب (فضل المدينة) برقم: 1361 (991/2).

2. أن هذه الشبهات وإن حوت في طياتها كثير من التفاصيل المتعلقة بأحداث جزئية وأحوال عينية إلا أنها تتفق في إنكار ما كتب من السنة باكرا، أو تستخف بشأنه قياسا بما كتب بعد مدة طويلة .

3. تأخر كتابة السنة في زعم الحداثيين العرب يضعف الثقة بها والركون إليها في أفضل الأحوال، ويلغي تماما الاحتجاج بها والاعتماد عليها عند عدد غير قليل منهم .

4. تهافت شبه الحداثيين فيما يخص تأخر كتابة السنة ، أمام الحجج الدامغة التي ساقها علماء المسلمين من المحدثين والمؤرخين.

5. تأخر تدوين السنة كان دافعا لزيادة الاهتمام بها عن طريق حفظها وتداولها شفهيا، وصونها من العابثين والمحرفين

6. مبعث الخطأ في اعتقاد تأخر كتابة والسنة ، هو عدم تفريقهم بين الكتابة والتدوين

7. امتناع الكثير من الصحابة والتابعين عن الكتابة كان بدافع الحذر والتوقي من الوقوع في الخطأ ، والانشغال بها عن كتاب الله ، لا بدافع اعتقادهم بتحريم كتابتها .

8. التدوين الرسمي للسنة النبوية زمن عمر بن عبد العزيز كان يعتمد فيما يعتمد على التراث النبوي الذي كتب منه الكثير زمن الصحابة والتابعين .

الحداثيون العرب يختلفون في المحصلة النهائية في التعامل مع السنة ، فإذا كانوا قد اتفقوا جميعا في إثبات تأخر كتابة السنة ، فإن منهم من بنى على ذلك رفضا تاما لها ونفيا لحجيتها، ومنهم من قبل بعضها كالمتواتر والسنة العملية التي نقلها المجموع .

